Coronavirus (COVID-19): Philosophical Reflections (1)
Salah Osman (Menoufia University, Egypt)
salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

كورونا (كوفيد ١٩) ... مقاربات فلسفية (١)

دكتور/ صلاح عثمان

DOI: 10.13140/RG.2.2.23672.39680

***

(١)
كلٌ يُغني على ليلاه!

ثلاث كلمات تُلخص مشـــهد تفشـــي فيروس كورونا: موجوعٌ ومفجوعٌ ومخدوعٌ: موجوعٌ في صمتٍ بكرامة مُهدرة، وحرية رأيٍ غائبة، وقوت يومٍ صعب المنال، ومرضٍ عصي بالفقر والجهل على العلاج، وفسادٍ ينخر في العظام، وأحلامٍ مُعتقلة، وحاضرٍ بائس، ومستقبل يُغلفه الغمام ... ومفجوعٌ في صخبٍ بنُذر تغيير تُهدد مكتسباتٍ وظيفية ومجتمعية ومالية كافح من أجلها بالنفاق والتطبيل طويلاً، وبحقيقة توشك أن تتجرأ على وثن الوهم القابع في أدمغة الحيارى، وبحُلمٍ مزعجٍ لهابيل يصحو غاضبًا ليطارد أخاه طالبًا القصاص ... ومخدوعٌ إما برأيه ومعطيات خصوصيته، أو بهذا أو ذاك ممن يوسوسون في عقله سرًا وجهرًا في الإعلام المُضاد والموالي؛ هذا ينادي بالخلاص، وذاك يُحذر: ويحك، أتهدم بئرًا بنيناه، وإن لم تسق حتى يُصدر الرعاء؟ هذا يصرخ: الليل يُوقد عتمته فأشعل مصباح حريتك، وذاك يُهلل: لعتمة الليل وأشباحه خيرٌ من قيظ النهار!

كلٌ يُغني على ليلاه، وليلي تذرف الدمع حائرة!

(٢)
الدادية العربية!

«اللاشيء هو كل شيء»؛ تلك هي النتيجة التي استخلصها نفرٌ من الفنانين الأوربيين أطلقوا على حركتهم اسم «الدادية» Dadaism خلال الحرب العالمية الأولى، حين استبد اليأس بالقلوب، وجُن جنون الحرب، فانطلقت مسعورة تلتهم بني البشر، وتدك بمعاولها الوحشية كل ما كانوا قد شيدوا بكدهم وجهودهم من صروح شامخة، وكل ما كانوا يعتزون به من قيم سامية. عمد الداديون

الى خلق فن ينقض الفن Anti-art، ليناظر هذا الخراب والدمار، تتألف صـــوره من خِرق بالية، وشـظايا أخشـاب، وأزرار مهشـمة، وفتائل من الخيط، وتذاكر ترام ممزقة، وغيرها من صـنوف النفايات. كانوا يلصـقون هذا الحطام على لوحة أو ينصـبونه على قاعدة كالتماثيل، ثم يقدمونها للملأ في وقارٍ مفتعل على أنها من آيات الفن الرفيع. أما قصائدهم فكانت عبارة عن كلمات غير مفهومة خالية من المعنى، بقدر خُلو حياتهم ذاتها من أي معنى!

كان معتنقو فكر الـ «دادا» Dada (وهي لفظة يصيح بها الأطفال الفرنسيون أحيانا إشارة الى حصان هزاز من الخشب) يُشككون فيما يُروجه السياسيون والاقتصاديون من أن حياتنا قد بلغت مرحلة حضـارية يحكمها العلم وتُطوقها العقلانية، إذ لم تؤد هذه العقلانية إلا إلى مزيدٍ من الدمار والقتل والفوضـى والعبثية، ولم يفعل الكبار شـيئًا بأكاذيبهم سـوى أن دمروا حاضـر ومسـتقبل الأطفال وشوهوا بمصالحهم براءتهم، فوضع أحدهم مثلاً، وهو الرسام والنحات الفرنسي المعروف «مارسـيل دوشـام» Marcel Duchamp توقيعًا سـاخرًا على «مبولة»، وقدمها للناس عملاً فنيًا يحمل اسـم «الينبوع» Fountain، كنوع من الاحتجاج السـاخر المتطرف الهادف إلى اكتشـاف الذات. نعم، قد يبدو عرض «المبولة» شـيئًا سـخيفًا، لكنه كان منطقيًا تمامًا بالنسـبة إلى جيلٍ أوربي سئم المُثل العُليا الغربية التي حملته إلى كل هذا الخراب والتدمير!

اتخذت الحركة من «ملهى فولتير» في أحد أزقة مدينة زيورخ بسـويسـرا مقرًا لها، وفي الرابع عشر من يوليو سنة ١٩١٦، وبينما كانت آلة القتل تحصد آلاف الأرواح، وقف مؤسس الحركة، الشـاعر الألماني «هوغو بول» Hugo Ball، يتلو إحدى قصـائده غير المفهومة، ويُعلن البيان الأول للحركة: (لقد فقدنا الثقة في ثقافتنا، كل شيء يجب أن يهدم، سنبدأ من جديد بعد أن نمحي كل شـيء، في ملهى فولتير سـيبدأ صـدام المنطق، الرأي العام، التعليم، المؤسسـات، المتاحف، الذوق الجيد، باختصار كل شيء قائم!). وسرعان ما تحولت الدادية إلى واحدة من أكثر الحركات تأثيرًا في الفن الحديث، رغم عمرها القصير الذي لم يدم لأكثر من عشر سنوات!

الدادية يمكن أن تراها اليوم بوضـوح في اسـتجابة الشـارع العربي العربي لجائحة كورونا، ولو بشكلٍ غير شعوري، كنوعٍ من رد الفعل على عقلانية الساسة ورجال الأعمال والدعاة والإعلاميين وغيرهم عبر عقودٍ طويلة، أولئك الذين سئم العامة قيمهم وسياسـاتهم وبرامجهم وتأكيداتهم الدائمة بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن الغد المشـــرق قد اقترب، لكنها لم تؤد إلا إلى وطنٍ عاجز يلفظ أنفاســه الحضــارية الأخيرة، انطلق رد الفعل من عشـوائيات سـكنها الفقر والظلم والقهر، لتمتد إلى أولئك الذين حملتهم النُظم التعليمية والصـــحية والأمنية إلى مؤخرة الركب الحضاري، ليتجلى صارخًا في فن الخلاعة والبلطجة وأغاني المهرجانات وحفلات العُهر اليومية.

لم تقف الدادية عند هذا الحد، بل امتدت إلى المدارس والجامعات والشوارع والمؤسسات لتلحظ فيها من الداديين كبارًا يُرسخون لقيم الفساد والسرقة واللامبالاة، ويُدشنون يوميًا مبادئهم الأساسية لتسويق الوهم! الغريب أن ثمة هلعًا يُكابده الجميع من فيروس الكورونا، لا يوازيه هلعٌ من التعاسة، واليأس، والفساد، والجهل، والفقر، ورؤية الأحلام المشروعة تتحطم ... أليست جميعها تؤدي إلى الموت؟!

الفارق بين الدادية الغربية والدادية العربية أن الأولى كانت حركة شعورية احتجاجية تهدف إلى عالمٍ أفضل، أما الثانية فهي حركة جمعية لا شعورية تدميرية تقف بنا جميعًا على حافة الهاوية! الأولى كانت حركة عقلانية ضد العقل، وكأن العقل يُراجع ذاته، أما الثانية فهي حركة لاعقلانية تغتال العقل، وكأن العقل ينتحر قهرًا ويأسًا!

(٣)
كورونا ... انتهى الدرس يا غبي!

الأطباء اليوم يخوضون حربًا شرسة مزدوجة؛ يتقدمون الصفوف لمواجهة عدوٍ ماكرٍ غير مرئي، يغزو الأجساد ويحصد الأرواح غير مبالٍ بتحصينات كبار زماننا؛ ويُصارعون جهلاً أقعدهم بمطالبهم المشروعة في ذيل قائمة اهتمامات الدولة ردحًا طويلاً من الزمن!

سل الطبيب عن بدل عدواه الذي لا يتجاوز تسعة عشر جنيهًا، بينما تنعم فئات أخرى أقل تعرضًا لمخاطر العدوى بأضعاف أضعاف هذا المبلغ!

سل الطبيب عما وفرته له الدولة من إمكانات تعليمية وبحثية، وبنية تحتية لازمة للممارسة الطبية لمواجهة أزمة كتلك التي تواجهها اليوم كافة دول العالم!

سل الطبيب عن مكانته في المجتمع إذا ما قورن بالقاضي أو ضابط الشرطة أو لاعب الكرة أو حتى أحد صغار أصحاب الأعمال التجارية!

اليوم تراجع واختفى الجميع، وتقدم الطبيب ... تراجع واختفى كل من دُقت له الطبول، وأُغدقت عليه الأموال، وسبحت باسمه الدهماء ... وتقدم من أهملناه طويلاً، ليُوثق للتاريخ نكبات أمة أعلت من شأن الجهول، وحاكمت قلمًا تجرأ يومًا وأراد إيقاظ العقول! تراجع الجميع، ولزموا بيوتهم بقرارات حكومية، إلا الطبيب، أراه يُبر بالقسم، ويُلبي نداء الوطن، ولسان حاله يقول: انتهى الدرس يا غبي!

(٤)
كُلُكُم لآدم!

فيروس كورونا، ذلك الجُندي الخفي المتناهي في الصـــغر (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)، لم يؤد فقط إلى خواء دور العبادة وأماكن تلقي العلم، بل وإلى تفريغ دور اللهو ومراكز التجارة ومنافذ الخدمات من روادها ... ولم يقنع بالبنية التصنيفية التي وضعها البشر لأنفسهم، فراح يصيب الفقير والغني، والأبيض والأسـود، والمالك والمملوك ... الجميع سـواء؛ تراهم سُـكارى وما هم بسُـكارى ولكن عذاب الله شـديد، لمن أصـيب ومن ينتظر، ولمن خضـع ومن هيمن، ولمن ظلم ومن تلقى الظلم ورضـي به ... وكأني به كدابة الأرض تُخبر الناس بما كان وما هو سـائدٌ من ظلمهم وعبثهم وفسـادهم! وكأني به يتحدى أحكام البشر ويُحير أذهانهم؛ بعضـهم يسـتوطن عقله فيتمسك بالخرافة، وبعضـهم يُصارع في المختبرات، وبعضـهم يُعيد حساباته وطموحاته، وبعضـهم يُواصـل غيه ونفاقه، لكن رسـالته في النهاية واضـحة: أننا جميعًا لآدم، وآدم من تراب، وأن الله حق، ووعده حق، ولقاءه حق، وقوله حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيين حق، ومحمد صـلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق!

(٥)
لا تهنوا ولا تحزنوا!

تسـتوقفني كثيرًا هذه اللوحة الجدارية للفيلسوف اليوناني «زينون الإيلي» وهو يُرشد الناس إلى بابي الحقيقة والباطل (وهي لوحة جدارية من القرن السادس عشر في بلدية إليسكوريال بمدريد)، حيث يبدو زينون وقد امتلكته حماسـة الرغبة في التمييز بين الصـدق والكذب، والحقيقة والوهم

(بغض النظر عما عناه بكلٍ منهما، وبغض النظر عن حُججه العبقرية والصــادمة ضـد الحركة والكثرة)، بينما ينقسـم من انتبهوا له إلى تابعٍ ملهوف، وشـاكٍ متردد، ومُعرضٍ مسـتنكر، وغير مُبالٍ غارقٍ في ملذته!

يرمز «زينون» لكل من أدرك زيف الحياة التي يُهيمن عليها الباطل منذ أن وطأ الإنســان بقدميه ذلك الكوكب المُثقل بنا؛ وكل من عزف سيمفونيات الوعي لجمهورٍ من الصُم عبر عصورٍ خلت، وكل من أدرك أن تحقيق المرء لماهيته ووجوده مرهونٌ، لا بالأجوبة المُسـكتة والمُسـكنة، وإنما بالأجوبة التي تثير مزيدًا من الأسئلة، وبالأسئلة التي تضرب العقل فتصيب الوهم في مقتل! كأنه يريد أن يصرخ: أيها الناس استفيقوا، فنحن نعيش ونُرزق بفضل الله، لا بفضل الآخرين، فلا تخدعنكم سـطوة الباطل، وبريق الكذب، وراحة الوهم، ولذة الفســاد ... وكأنه يقول لكل الذين يعملون في صمتٍ دون ابتغاءٍ لشهرة، أو سعي إلى منصب زائل؛ ولكل الذين أخلصوا النية دون أن يعرفهم أحد: لا تهنوا ولا تحزنوا، إن الله يعرفكم جيدًا!

كأني به الآن يُنادي: أيها الناس، لئن ذهب كورونا ولم يُوقظ ضـمائرنا وعقولنا فلتكونوا على يقينٍ بأننا نحن الوباء على هذه الأرض ... لم يأت كورونا ليقتل فقط، بل لكي يوقظنا من غفلتنا، فهلا أفقنا؟!

(٦)
رقم التكاثر ... لماذا أصبح العزل الاجتماعي ضروريًا!

في علم الأوبئة، يمثل رقم التكاثر الأســاسـي Basic reproduction number عدد الحالات التي تُنتجها حالة واحدة مُصــابة خلال فترة العدوى بين مجموعة غير مُصــابة، ويُرمز له بالرمز R_0. وبصفة عامة، إذا كان R_0 أقل من (١)، فإن فرصة العدوى ستتضاءل حتى يختفي المرض تمامًا، أما إن كان أكبر من (١)، فإن كل شخص مُصاب سوف ينقل العدوى إلى شخصٍ آخر على الأقل، مع الوضــع في الاعتبار عدم تجانس المجتمعات من حيث نمط الحياة. وتتراوح التقديرات الحالية لعدد التكاثر الأسـاسـي لفيروس كورونا المسـتجد (أو كوفيد-١٩) COVID-19 بين ٢ و٣، ليقترب بهذا من عدد التكاثر الأساسي لفيروس «سارس»، الذي تراوح بين ٢ و٤ في سنة ٢٠٠٣.

معنى هذا أنه من أجل السـيطرة على الوباء، يجب منع حوالي ثلثي جميع حالات العدوى، ونظرًا لعدم وجود لقاحات متوفرة ولا حماية مؤكدة ضـد الفيروس حتى الآن، فمن المتوقع أن

يصـاب ما معدله ٦٠٪ إلى ٧٠٪ من الناس، عندها فقط لن يتمكن الفيروس من الانتشـار أكثر، حيث سيبدأ بعد ذلك في مواجهة المزيد من المصابين أكثر من مواجهة غير المصابين! لكن هذا مجرد تقدير في هذه المرحلة الضـبابية، حيث يُفترض أن الشـخص المصـاب يمكن أن ينتقل الفيروس في فترة تتراوح بين ٢٤ و٤٨ سـاعة قبل ظهور الأعراض عليه، وتشـير الأبحاث في مدينة شـنجن الصـينية Shenzhen إلى أن ربع حالات العدوى قد انتقلت عن طريق الأشـخاص الذين لم تظهر عليهم الأعراض بعد! وبمجرد ظهور الأعراض على الشـخص المصـاب، فمن المحتمل أن يكون معديًا لمدة تتراوح بين سـبعة أيام إلى اثني عشـر يومًا إذا كان المرض خفيفًا، ولأكثر من أسبوعين إذا كان شديدًا.

من جهة أخرى، من الصـعب علينا أن نفهم النمو غير الخطي للأشـياء؛ ففي المتوالية الحسـابية مثلاً يكون الفرق بين أي عددين متتاليين ثابتًا (١، ٣، ٥، ٧، ٩، ١١، ١٣، ... إلخ)، لكن الفيروسات لا تنمو بطريقة خطية، بل بشكلٍ كبير للغاية؛ فالشخص المُصاب يُصيب شخصًا آخر، وهذان الشـخصـان يُصـيبان شـخصـين آخرين بدورهما، وأربعة أشـخاص يُصـيبون أربعة أشـخاص آخرين، وهلم جرا. الأرقام إذن تنمو بسـرعة كبيرة، وفي كل لحظة تُصـبح مختلفة تمامًا عن اللحظة السـابقة. ومن أجل تتبع انتشـار الفيروس، يجب على المرء أن ينظر إلى سـرعته المضاعفة في الانتشار، حيث يتقلص الوقت الذي يتضاعف فيه انتشار الفيروس باستمرار.

يُقدم آدم كوتشـارسـكي Adam Kucharski (المتخصـص في الرياضـيات وعلم الأوبئة بكلية لندن للصـحة وطب المناطق الحارة) نماذج رياضـية للأمراض المعدية لفهم مسـارها بشـكل أفضـل، وقد ساهم بنماذجه في فهم آلية انتشار أمراض مثل الإيبولا والسارس والإنفلونزا، وهو الآن يبحث الآن فـي آلية انتشـار كورونا. ففي كتـابه «*قواعد العدوى: لمـاذا تنتشر الأشياء ولمـاذا تتوقف*» *The Rules of Contagion: Why Things Spread-and Why They Stop* (فبراير ٢٠٢٠)، حدد أربعة متغيرات تصف احتمالية انتقال المرض، أشار إليها بالحروف الإنجليزية D–O–T–S:

- (D) = المدة Duration، وتعني مدة العدوى؛ فكلما طالت فترة المرض لدى شـخصٍ ما، طالت فترة تأثيره بالعدوى على الآخرين؛ وكلما كان الشـخص معزولاً عن الآخرين، قل احتمال نقل الفيروس إلى الآخرين.
- (O) = الفرصة Opportunity، أي فرصة أو احتمالية انتقال الفيروس من شخص إلى آخر. وهذا المتغير يُحدد سلوكنا الاجتماعي بشكلٍ فعلي؛ ففي الظروف العادية ثمة اتصال جسدي لكل شخص مع الآخرين بما يُقارب خمس مرات يوميًا. ويمكن تقليل هذا الرقم إذا قمنا بزيادة المسافة الفاصلة اجتماعيًا (مثلاً عن طريق الامتناع عن السلام بالأيدي).

- (T) = احتمالية الانتقال Transmission probability، أي مدى احتمالية انتقال الفيروس من شخص لآخر عندما يلتقيان؟ يفترض كوتشارسكي وفريقه أن هذا يحدث في كل ثالث فرصة للالتقاء.
- (S) = الاستعدادية Susceptibility، أي مدى احتمالية إصابة الشخص بالفيروس وفق احتمالية الانتقال. وحيث أنه لا يوجد في الوقت الحالي لقاح ضد الفيروس، ولا توجد مناعة مضمونة، فإن نسبة إصابة الشخص يقترب من ١٠٠%.

بضرب D، O، T، S، نحصل على رقم التكاثر للفيروس، ونظرًا لعدم وجود لقاحات فعَّالة لمنع انتشار المرض في الوقت الحالي، فلن يُمكننا التعامل سوى مع D، O، T، وهذا يعني عزل المرضى، وتطبيق استراتيجية التباعد الاجتماعي بقوة، واتباع التعليمات الصحية الضرورية مثل غسل الأيدي بالماء والصابون وغيرها.

الهدف من هذه الإجراءات هو تسوية المنحنى، إذ يجب ألا يتجاوز عدد الحالات المرضية قدرات أنظمة الرعاية الصحية، حتى لا يضطر الأطباء إلى تحديد المرضى الذين يجب معالجتهم والذين يجب تركهم يموتون، مثلما حدث في إيطاليا حين تم استبعاد كبار السن من المنظومة العلاجية المتكاملة!

Carthaus, Anna. "Corona Confusion: How to Make Sense of the Numbers and Terminology: DW: 20.03.2020." DW.COM. Deutsche Welle (DW), March 24, 2020. https://p.dw.com/p/3ZeJ7.

(٧)
عالم ما بعد كورونا

قد يُقال يومًا أن فيروس كورونا قد وجه الضربة القاضية للنظام العالمي الجديد، وكذلك لنصف قرنٍ من العولمة بكافة نجاحاتها وخيباتها، وللاعتماد المتبادل بين دول العالم الكبرى ... لقد توقفت حركة الطيران، وأنشطة شركات السياحة، والمهرجانات والتجمعات الدولية، وتم إلغاء الاتفاقيات والحفلات الموسيقية والأحداث الرياضية بما فيها أولمبياد طوكيو، وكل ذلك سوف يكون مشروطًا وسينطلق وفقًا لأسس جديدة ... وستخضع اتفاقيات التجارة الحرة والجات وغيرها لقواعد تحد من كافة الامتيازات التجارية التي تسمح لدولة مثل الصين بالتحكم الإنتاجي لأجزاء أساسية من السلع الحيوية، أو لأية دولة تُقلص الاستقلال الاقتصادي والعلمي والحياتي لدولة أخرى.

ستنظر الدول الكبرى لشعوبها أولاً، وقد تُعيد ألمانيا النظر في دعوة أكثر من مليون لاجئ سوري إلى أراضيها رغم قسوة الظروف التي يعيشون فيها، وقد تُحجم الدول الكبرى عن التدخل في أماكن الصراعات الملتهبة في الشرق الأوسط وغيره، وقد تزداد القبضة الحديدية للدول الاستبدادية، وقد وقد وقد ...

المسألة في حاجة إلى أكثر من دراسة لتجليات كورونا في المستقبل القريب والبعيد، وما أقرأه الآن من دراسات مستقبلية غربية يكشف عن رؤى متباينة، لكن الأمر المؤكد أن تاريخ كورونا سيكتبه المنتصرون، وأن الفيروس يُعيد الآن رسم خريطة العالم السياسية والاقتصادية والثقافية بشكلٍ سريع ومُذهل!

(٨)
الزموا بيوتكم ... النار إذا لم تجد ما يُوقدها تنطفئ!

قضى طاعون عمواس على قرابة خمسة وعشرون ألف مسلم أشهرهم ابو عبيدة ومعاذ بن جبل وأبو جندل رضي الله عنهم، وتولى عمرو بن العاص الشام فرأى شدة فتك المرض، وقارن بينه وبين النار فوجد بأن النار إذا لم تجد ما يوقدها تنطفئ، فطلب من الناس الخروج من المدن الشامية إلى الجبال ويتقسمون بحيث لا يزيد كل قسم عن خمسة، ومن يصاب منهم لا يقترب من أحد، وبهذه الطريقة توقفت العدوى!

لا تجزعوا ولا تقنطوا، فنحن نفر من قدر الله إلى قدر الله، وعقموا قلوبكم وضمائركم وعقولكم قبل أيديكم، فالحقد والبُغض والجهل أسوأ من كورونا وغيره من الفيروسات!

(٩)
ربيع صامت!

«كم أخاف أن يأتي الربيع صامتًا بلا طيورٍ تُغرد» ... هكذا كتبت «راشيل كارسون» Rachel Carson في مُؤلفها «ربيع صامت» Silent Spring سنة ١٩٦٢، في محاولة جريئة منها لإيقاظ الإنسان من سُبات العبث والجشع والغرور العلمي الذي يُهدد التوازن البيئي للأرض وينعكس على الإنسان نفسه عللاً وأمراضًا! هوجمت «كارسون»، وسخر منها أرباب رأس المال المُسخرون للعلم، المتعطشون للأرباح ولو على حساب كائنات حية تحتضر ... ماتت

«كارســون» بعد عامين فقط من نشــر كتابها، وقبل أن يســتجيب لها الضــمير البيئي بقوانين واتفاقيات ولوائح لم تحل دون ما كانت تخشاه

تذكرت «كارسون» حين رأيت صمت الحارات والشوارع والميادين الكبرى، صمت المطارات والحانات والمطاعم ودور العبادة، صـمت القاعات والمتاجر والمؤسـسـات وسـاحات الرياضـة والفنون، صــمت الليل الذي غيَّر موعده فاقتطع منا ســاعات نقضــيها بلا حراكٍ في بيوتنا؛ إنه الربيع الصــامت بحق ... صــحيح أن الطيور ما زالت تُغرد صــباحًا، وأن الأشــجار والزهور قد بدأت تستعيد عافيتها وتتزين بألوانها، وأن السماء قد عمدت إلى طرد غيومها وسُحبها، لكن كل ذلك يتم بعيدًا عنا، وكأن الطبيعة قد أعلنت عن ثورتها الصامتة بأدق أدق كياناتها، وبأهون ما لا نراه، وبأقسى ما يمكن أن يؤدبنا دون صوت غير أنين الحيارى!

ما بين ليلة وضحاها ستنقشع الغُمة، وستأخذ الطبيعة استراحة محارب، ولكن سينضج جيلٌ جديد يُدرك أن العالم الذي أورثناه إياه ليس رائعًا ولا جميلاً كما صــوَّرناه، وأن ضــمائر الكبار لم تكن يقظة كما روَّجوا لها ... ســيُدرك الجيل الجديد أننا جميعًا لم نكن ســوى أكذوبة ... أكذوبة ضخمة تنبغي مُحاكمتها!

(١٠)
لي وينليانغ Li Wenliang ... البطل الذي أفشى الحقيقة!

ما نوع المســتقبل الذي يمكن أن يُواجه البشــر حين تُكمم أفواه العلماء خشــية اهتزاز عروش الحُكم؟ وهل ننتظر تغييرًا لصالح حُرية التعبير تحمله الأيام والشهور والسنوات المُقبلة؟

الإجابة قد لا تكون مُريحة، بل هي بدلالات الأزمة الحالية قد تكون مؤلمة وفاضحة؛ أو كما أعلن أحدهم في الصــين: «لقد تمت التضــحية بمن حذَّر من داخل خط المواجهة الأول، أما المسؤولين فلم ولن تتم محاسبتهم ... ولئن كُنت تنتظر عالمًا بلا أكاذيب فأنت واهم، انتظره فقط في الجنة»!

كان «لي»، وهو طبيب عيون صيني شاب يعمل في مستشفى ووهان المركزي، هو أول من حذَّر من تفشــي وباء كورونا حين شــاهد تقريرًا لمريض يُظهر إصــابته بفيروس مســتجد يُشــبه السارس. في نهاية ديسمبر ٢٠١٩ أرسل «لي» رسالةً نصية إلى زملائه الأطباء – باستخدام تطبيق WeChat الشــائع في الصــين – يُحذرهم ويُشــجعهم على حماية أنفســهم من العدوى، وبعدها بأيام قام مكتب الأمن العام باســتدعائه والتحقيق معه بتهمة إثارة الشــائعات وبلبلة الرأي

العام باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وأجبر على التوقيع على وثيقة يعترف فيها بارتكاب جريمة الكذب والترويج للشائعات مما يُهدد أمن المجتمع واستقراره!

بعدها بأسبوع واحد أصيب «لي» بالمرض، عندما فحص مريضًا مُصابًا في المستشفى، وأصيب معه آخرون، ونظرًا لنقص إمكانيات الاستعداد للفيروس الجديد مات «لي» عن عُمر يُناهز الثالثة والثلاثين، ولحقه الآلاف ما بين مُصاب وقتيل ... مات «لي» لكن الحقيقة التي أعلنها لم تمت، بل أبت إلا أن تتجاوز حدود الصين لتمرح في ربوع العالم صارخة مع كل روح تصعد إلى بارئها!

من المتوقع أن تضع زوجة «لي» طفلها الثاني في يونيو المُقبل، ربما ستُخبره بأن أباه قد مات مرتين؛ مرة حين نطق بالحقيقة، ومرة حين التهم الفيروس رئتيه ليُسكته إلى الأبد!

رسم أحدهم اسم «لي وينليانغ» على أرض يُغطيها الثلج بجوار نهر تونغهوي في بكين، وكتب أحدهم متسائلاً: هل سيُنسى اسم «لي»؟ وأجاب آخر: نعم يا صديقي، فسوف يذوب الثلج بعد حين ... لكن «لي» سيعيش قطعًا في صدى اسمه ... تبًا لهذا العالم الكاذب!

(١١)
فيروس كورنا ... دعوة للحب!

كيف أصبح الآخر موضع شك؟ كيف أصبح التواصل الإلكتروني بديلاً آمنًا للتواصل الحي بين الناس؟ كيف تؤدي غريزة البقاء إلى إيثار السلامة بالعُزلة؟ كيف تفر الأنا من كل شيء خشية الموت؟

في روايته «الطاعون» The Plague (١٩٤٧) يُجسد «ألبير كامو» Albert camus وضعًا شبيهًا بوضعنا الآن، وكأنه يستلهم – على المستوى الرّمزي الخالص – واقعنا المعاصر بكل سلبياته وإيجابياته في مواجهة أشكال الوباء الجديدة، من إيبولا إلى سارس، ومن حمى الوادي المتصدّع إلى كورونا!

يُصور لنا «كامو» كيف انعزلت مدينة كُبرى وانقطعت عن العالم الخارجي خشية انتشار المرض، وكيف تحول واقعها اليومي إلى مأساة، وكيف أجبر الناس على الاعتكاف في بيوتهم وقد تخلوا طوعًا وكُرهًا عن كل فعاليات الحياة ... يُخلخل «كامو» الطبيعة البشرية كما نراها الآن، ويُوضح كيف يمكن أن يُصيبها الهلع، وتستحوذ عليها الوساوس، لتُخرج في تناقضٍ واضح

أســـوأ ما فيها وأجمل ما فيها، ويُنهي روايته مؤكدًا أن الطاعون لا يموت، بل هو في داخل كل امرئ منا، يتحين الفرصة للظهور، لكنه يكتب في موضع آخر ما ارتأى أنه سبيل النجاة:

إذا كان عليَّ أن أضـع يوماً كتاباً في الأخلاق، فسـيكون في مائة صـفحة تسـع وتسـعون منها خالية، وفي الصفحة الأخيرة سأكتب أنني أقرّ بنوع وحيد من الواجب الأخلاقيّ: أن نحبّ!

(١٢)
كورنا ... نظرية المؤامرة!

لا أحبذ عادةً نظرية المؤامرة في معالجة أية ظاهرة طارئة أو حدث مؤثر، لكن الحُجج التي تسـوقها النظرية فيما يتعلق بجائحة كورونا جديرة بالقراءة المتأنية والتأمل والنقاش، أو على الأقل جديرة بالمعرفة، لاســيما وأن من يتبناها كتابٌ كبار مثل البريطانيين «ديفيد آيك» David Icke، و«فيرنون كولمان» Vernon Colemen (الأول له أكثر من عشـــرين كتابًا في نظريات التلاعب بالعقول، والثاني له أكثر من مائة كتاب في الصحة العامة والسياسة وحقوق الحيوان).

مؤدي النظرية باختصـــار أن فيروس كورونا جزءٌ من خطة تحويها أجندة سـياسـية – اقتصـادية دولية خفية، وأنه مجرد حلقة من حلقات ســـابقة وتالية من الفيروســـات المُخلَّقة معمليًا (ذات الســـلالات المُوجهة المختلفة) لتحقيق أهداف معينة عن طريق بث الرعب في نفوس الناس. فما هي هذه الأهداف؟ وما دلائلها؟ ولماذا تُبالغ الحكومات ووسائل الإعلام في بث الرُعب والفزع منذ اللحظة الأولى لظهور فيروس كورونا؟

لنتابع معًا ...

١. وفقًا لتقارير منظمة الصـحة العالمية WHO يبلغ متوسـط عدد الوفيات الناجمة عن الإصـابة بالإنفلونزا العادية الموسـمية ما بين ٢٥٠,٠٠٠ و ٦٥٠,٠٠٠ شـخص سـنويًا على مسـتوى العالم. ووفقًا للمركز الأمريكي لمكافحة الأمراض والوقاية منها CDC يُصـاب سـنويًا ما يقرب من ٤٥ مليون شخص بالإنفلونزا العادية. أما عدد الذين ماتوا جراء الإصـابة بفيروس كورونا (منذ ظهوره في ديســمبر ٢٠١٩ وحتى كتابة هذه السـطور (وفقًا لمنظمة الصــحة العالمية أيضًــا) فيبلغ تقريبًا ٢٣,٣٢٨ شـخص على مسـتوى العالم؛ أي أن الأنفلونزا العادية تحصـد عددًا من الأرواح يفوق بمراحل ما يحصده فيروس كورونا!

٢. الغريب أن الأرقام الخاصــة بضــحايا الأنفلونزا العادية تتوارى الآن، ربما للخلط بين ضـحايا كورونا وضحايا الأنفلونزا الموسمية! كما أن توقعات الإصابة والوفاة الخاصة بفيروس كورونا

تبدو مُضـــخمة بطريقة فجة. يزعم الخبراء – وضـــع ألف خط تحت كلمة خبراء – أن ثمة ٨٠% من سُـكان العالم سـوف يُصـابون بالفيروس، وأن عدد الذين سـيحتاجون للحجز بالمســتشــفيات ســيُقدر بمئات الملايين. في إنجلترا وحدها يتحدثون عن حوالي ٨ مليون شـخص، ولا أحد يعرف على أسـاس بُنيت هذه التوقعات، ويزعم صـانعوا الدراما الكونية أن ثمة ملايين من الناس سوف يموتون!

٣. ربما يتذكر المرء ذُعر العالم بأكمله من الإيدز في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي، حيث زعمت الجمعية الطبية البريطانية أن كل شخص في بريطانيا سوف يتأثر بالإيدز بشكلٍ أو بآخر، وهو ما أدى إلى تفشـي الهلع بين الناس حتى أن بعضـهم أقدم على الانتحار نتيجة القلق المُبالغ فيه. وفي وقتٍ ما، كان عدد الأشخاص الذين تم توظيفهم لرعاية مرضى الإيدز يفوق عدد المرضى أنفسهم على امتداد العالم. كذلك الحال بالنسبة لفيروس سارس أو أنفلونزا الخنازير!

٤. من وقتٍ إلى آخر تشـعر الحكومات بالحاجة إلى تخويف الشـعوب لإبقائها تحت السـيطرة، لكن ما يحدث الآن يبدو مختلفًا؛ فالأجندة الدولية الخفية تهدف إلى القضـاء على المسـنين (لاسـيما من تتراوح أعمارهم بين ٦٠ و٧٠ عامًا) والتخلص منهم تمامًا، هذا بالإضـافة إلى التخلص ممن يُعانون أمراضًـا مختلفة في القلب والرئة والكبد وغيرها، وتلك هي الفئة المستهدفة أساسًا بفيروس كورونا ... الفئة غير المُنتجة، وغير المرغوبة من قبل شركاء رأس المال، وهو ما تجلى في تصـريحات بعض كبار السـياسـيين، وكذلك فيما اتخذته بعض الحكومات من قرارات بإخلاء المشـافي من المرضـى العاديين وكبار السـن، والتصـريح بعدم القدرة على علاج من تخطوا الستين أو السبعين أو الثمانين إذا ما أصيبوا بالفيروس، إعمالاً لمنطق البقاء للأصلح!

السبب واضـح بالطبع، فهؤلاء المسنين وغيرهم من العاجزين عن الإنتاج يُمثلون عبئًا ضـخمًا على اقتصـاديات الدول، والتي تصـب بدورها في خانة الاقتصـاد العالمي (معاشـات – تأمين صــحي – خدمات بلا مقابل إنتاجي – إلخ). وتشــير تقارير الأمم المتحدة إلى أن عدد الأشـخاص بعمر السـتين عامًا أو أكثر قد ازداد بوتيرة متصـاعدة منذ سـنة ١٩٥٠، إذ بلغ ٦٠٠ مليون ســنة ٢٠٠٠، وتجاوز ٧٠٠ مليون ســنة ٢٠٠٦. وفي نهاية ســنة ٢٠١٨، وصـفت الأمم المتحدة المعمورة بأنها «تشيخ» بوتائر أسـرع من تجدد الأجيال الشـابة، حيث سُجل لأول مرة تفوق عدد كبار السـن على عدد الأطفال، ذلك أن عدد سكان الأرض الذين تجاوزوا الـ ٦٥ من العمر يعادل ٧٠٥ ملايين، في حين بلغ عدد الأطفال دون الخامسة نحو

٦٥٠ مليونا فقط، ومن المتوقع أن يصل عدد كبار السن والمسنين مجتمعين إلى ٢,١ مليار بحلول سنة ٢٠٥٠، الأمر الذي يُمثل تهديدًا صارخًا للاقتصاد العالمي وللبنية المجتمعية للعالم!

٥. تستلزم هيستريا فيروس كورونا أن يتم التلاعب أيضًا بالأرقام؛ فإذا كان لديك مائة شخص تم التأكد من إصابتهم بالمرض، وتوفي منهم أربعة فقط، فإن نسبة الوفيات تُصبح ٤%، ولكن الاختبارات المتعلقة بالفيروس لا يخضع لها سوى من يذهبون إلى المشافي، وبالتالي فالعدد الإجمالي للمصابين قد يكون أعلى بكثير من العدد المُعلن، ومن ثم فإذا كان لديك ألف شخص مُصاب ومات منهم أربعة، فالنسبة تُصبح ٠,٤%، وإذا كان لديك عشرة آلاف مُصاب تُصبح النسبة المئوية أقل، وهكذا يُمكنك جعل الرقم مُرعبًا ومؤثرًا في كافة شرائح المجتمع. وهنا يتجلى الهدف الثاني للأجندة الخفية، ألا وهو إحكام السيطرة على الشعوب بشكل لم يسبق له مثيل، فالهيستريا تتيح لك فرض القرارات التي تريدها بسهولة من خلال نظرية (المشكلة – رد الفعل – الحل)، وحين تريد القيام بتغيير كبير، فلابد وأن تكون الخطوات كبيرة، ولكن دون أن يشعر بها أحد، ودون أن يمتلك القدرة على رفضها أو حتى مناقشتها!

٦. تبدأ السيطرة الشاملة بفرض استخدام تكنولوجيا المراقبة التي تم استخدامها خلال الأزمة، لاسيما في الصين، وبعضها كان في طور الاختبار، حيث تتيح هذه التكنولوجيا المتطورة للحكومات مراقبة الجميع وعلى مدار الساعة، وتحليل ردود أفعالهم وتوجهاتهم بدقة، وبما يُشبه مجتمع الهانجر جيمز Hunger Games، هذا بالإضافة إلى القضاء على الأعمال التجارية الصغيرة، والعائلية، والشركات متوسطة الحجم، وحتى بعض الشركات الكبيرة (التي تكابد خلال الأزمة خسائر فادحة قد تحول دون قيامها من جديد أو استمرارها في المنافسة) لصالح شركات كونية عملاقة تستحوذ على كل شيء، والنتيجة المنتظرة في النهاية مجتمعات هرمية داخل هرم كوني كبير، قمته تمثل ١% فقط من فاحشي الثراء، وقاعة يمثل الفقراء، وما بينهما حكومات بوليسية عسكرية تكنوقراطية تُهيمن على كل شيء باستخدام الذكاء الاصطناعي!

٧. تشمل السيطرة أيضًا إلغاء التعامل بالنقود تمامًا واستخدام البطاقات المصرفية (مثلما هو الحال في الصين) بحجة منع انتشار الأمراض، الأمر الذي يُتيح لجهات المراقبة التحكم في حركة الأموال ومعرفة مصادرها وأوجه إنفاقها بشكل متصل ودقيق. أضف إلى ذلك تعميق

استخدام وسائل التواصل الإلكتروني كسبيل للهيمنة على العقول وتوجيهها بأدوات تكنولوجية جديدة بدأ الإعلان عنها منذ فترة.

٨. قد يعترض أحدهم بأن الفيروس قد أصاب بعض كبار السياسيين في دول العالم الكُبرى، وهم من المسنين أيضًا، لكن الحقيقة أن أحدًا منهم لم يمت! هنا نجد أنفسنا أمام خيارين؛ إما أن الفيروس لم يُصبهم بالفعل، وأن إصابتهم مجرد جزء من الحملة الإعلامية الشرسة لإثارة الهلع؛ أو أنهم قد أصيبوا حقًا لكن بسلالة ضعيفة من الفيروس، أو أن لقاح الفيروس مُتاح لهم بشكلٍ أو بآخر. وحتى لو مات أحدهم فقد أدى دوره المطلوب في المؤامرة!

الخلاصة – وفقًا لنظرية المؤامرة – هي ما ذهب إليه «فرنسيس جالتون» Francis Galton (ابن خال داروين) في القرن التاسع عشر من أن شفرة الانتخاب الطبيعي قد باتت ثلمة، وما علينا سوى أن نشحذ هذه الشفرة لاستبعاد العاجز والضعيف والمريض مثلما يفعل مُربي النباتات والحيوانات، والإبقاء فقط على من يتمتع بصفات مرغوبة لصالح النوع ... أو بالأحرى لصالح الاقتصاد الدولي!

(١٣)
أيام العُزلة!

تشابهت أيام العُزلة، حيث نقبع جميعًا في بيوتنا كأسرى حرب، محاصرين بكائنٍ من أدق كائنات الأرض ... يُهددنا بلا صوت، فرائس لخوفٍ تتراجع معه حكايات الشجاعة، باستثناء شجاعة العزلة وشجاعة تحمل أثقالها خوفًا من اللامرئي.

لا أدري لم تذكرت في العُزلة هذا الحوار بين الطبيب والمجنون في المهزلة الأرضية ليوسف إدريس:

الطبيب: تقدر تقول لى النهارده إيه؟

المجنون: النهاردة السبت يا دكتور.

الطبيب: وبكره؟

المجنون: بكره السبت برضه يا دكتور.

الطبيب: يعنى النهارده السبت وبكره السبت؟! أمّال الأحد ييجي امتى؟

المجنون :الأحد ييجي لما نحس إن النهارده اختلف عن إمبارح، لما نحس إن الدنيا اتقدمت بينا خطوة، لما عدالة النهارده تبقى أكتر من عدالة امبارح، لما نحس إن ظلم النهارده أقل بكتير من ظلم إمبارح، لما نحس إننا لاقيين مكان فى أتوبيس، لما نحاسب المسؤول وهو لسه مسؤول، لما نحس إننا اتقدمنا خطوة أو اترقينا سنتي ... ييجي الأحد يا دكتور!

تُرى هل ستنتهي العُزلة ليأتي يوم جديد بشيء واحد فقط مما ذكره المجنون؟

(١٤)
إيان ليبكين!

من مفارقات كورونا إصابة البروفيسور «إيان ليبكين» Ian Lipkin بالفيروس، وهو واحدٌ من أهم خبراء مكافحة الفيروسات في العالم، ويعمل أستاذًا لعلم الأوبئة بكلية ميلمان Mailman للصحة العامة ومديرًا لمركز العدوى والحصانة بجامعة كولومبيا، وقد اشتهر أيضًا بكونه المستشار العلمي لفيلم «العدوى» Contagion 2011.

كان ليبكين عادةً في الخط الأول لمكافحة أي مرض، وقد زار الصين في يناير الماضي في ذروة انتشار المرض ومواجهتها له، ثم عاد إلى الولايات المتحدة وخضع للحجر الصحي لمدة أربعة عشر يومًا، لكن أعراض المرض ظهرت عليه منذ أيام! وقد صرَّح من فراش المرض بأن إصابته بالفيروس – رغم خبرته الواسعة في كيفية تجنبه – تعني أن أي شخص يمكن أن يُصاب به، وما من وسيلة لتجنبه سوى العُزلة الاجتماعية!

يذهب بعض المحللين إلى أن فيلم «العدوى» كان بمثابة «برمجة استباقية» للعقول إزاء حدثٍ محتمل أو مؤامرة يجري الإعداد لها، أو بالأحرى محاكاة افتراضية لواقعٍ مُنتظر: «ماذا لو حدث كذا؟» أو «ماذا لو فعلنا كذا؟»، وهو ما أعلنه ليبكين بقوله: «العدوي» دعوة لإيقاظ الوعي لدى الجمهور، فروايات اليوم يمكن أن تُصبح غدًا واقعًا بسهولة، إن جزءًا من الهدف كان الترفيه، وكذا تبصير الناس بمؤامرة يمكن أن تكون واقعية!

(١٥)
أخلاقيات كورونا

لا تُخبرني عن الوقت في غرفة مليئة بالساعات! حسنًا، لكن ماذا لو كنت في هذه الغرفة وأنت عاجزٌ عن معرفة الوقت، أو كنت تعرفه لكنك لا تستطيع استثماره؟

تاريخٌ طويل لأخلاقيات البيولوجيا، وأخلاقيات الطب، وأخلاقيات المهنة، أصــــبح اليوم على المحك؛ آلاف المؤتمرات واللجان والمنشـــورات بدت وكأنها بلا نفع أو تأثير يُذكر اليوم! ففي خضـــم الأزمة الدولية الخانقة لفيروس كورونا أدرك كثيرون أن ثمة فرقًا هائلاً بين أن تقوم بالتنظير الأخلاقي وأن تلتمس تطبيقه؛ وأن لأخلاقيات الدول والحروب – أيًا كانت طبيعتها – قواعد ومعايير يصـعب مزجها بأخلاقيات الفرد من خلال الأمر: افعل ولا تفعل! الأمر شـبيه بأن تأتي بمن يتضور جوعًا وتتلو عليه آداب الحصول على الطعام وتناوله!

عبر تاريخها الطويل أدركت الفلسفة أهمية التنظير الأخلاقي لقضايا الإنسان المُلحة، بما في ذلك قضايا العلم التي تُمثل تحديًا قويًا لعالمنا المعاصر، لكن أزمة جاءت كورونا لتُعري دُثر القيم الزائفة التي تغنينا بها طويلاً، وبات واضحًا أن الهوة واسعة وسحيقة بين النظر والتطبيق، أو بين «ما يجب أن يكون» و«ما هو كائنٌ بالفعل»، وأن الفلاسـفة في وادٍ وصُـناع القرار في وادٍ آخر. الأدهى من ذلك أن الرجل الوحيد الغائب الآن في كافة اللقاءات والمؤتمرات الصــــحفية لقادة العامة هو فيلسوف الأخلاق (على حد تعبير جوناثان توبين Jonathan Tobin في مقاله المنشور يوم الأربعاء ٢٥ مارس ٢٠٢٠ بصــــحيفة ناشـــيونال ريفيو الأمريكية National Review تحت عنوان: ترامب في حاجة إلى لجنة لأخلاقيات البيولوجيا لإرشاد الأمة حول سُبل الاستجابة لأزمة كورونا).

انصـــب تركيز الجميع على آليات انتشـــار الفيروس وكيفية السـيطرة عليه، لكن القضـــايا الأخلاقية التي ترتبط قطعًا بعملية صُنع القرار – سواء على المستوى الفردي أو المستوى الجمعي – لم تجد من يتصـدى لها، وسـادت حالة من التيه الأخلاقي داخل الوزارات والمشـافي والمتاجر وأسواق المال، بل وداخل المعامل والمراكز المعنية بتطوير اللقاحات أو توريد المستلزمات الطبية، لتبدو التساؤلات التالية – وهي جزء من كلٍ ضخم – وكأنها تُطرح لأول مرة:

١ – كيف يُقرر مسؤولو المشافي والأطباء من هو جدير بالبقاء على قيد الحياة ومن يجب تركه ليموت؟ وهل يُعد التخلي عن المســـنين فعلاً أخلاقيًا رغم كونهم بشـــرًا، ورغم كونهم من الناحية القانونية مواطنين خضعوا لتشريعات الضرائب الحكومية؟

٢ – ما حدود المسؤولية الأخلاقية في إخضاع البشر لتجارب اللقاحات المقترحة في هذه المرحلة الحرجة، والتي اندفعت إليها الدول بُغية السيطرة على الوباء؟

٣ – كيف يمكن الموازنة بين حرية الأفراد والقيود المفروضـــة من قبل الحكومات بقرارات الحجر الصحي منعًا لانتشار الوباء؟

٤ – إلى أي حد رُوعي البُعد الأخلاقي بشأن الأسر الفقيرة التي تضررت من إجراءات العزل، سواء من حيث الطعام أو التعليم أو علاج الأمراض النوعية الأخرى، وهل التزمت الحكومات بالتخطيط المُسبق لمواجهة الأزمات المشابهة المُحتملة؟ وما المسؤولية الأخلاقية لرجال الأعمال الذين ترعاهم الدولة في مراعاة هذا البُعد؟

٥ – ما مدى التزام الأطباء والمسؤولين ووسائل الإعلام بالشفافية والوضوح في مخاطبة الرأي العام؟

٦ – هل وفرت الدولة والمؤسسات الطبية وسائل الحماية من العدوى لمن تقتضي الظروف تواجدهم بأماكن العمل خلال فترة الأزمة، لاسيما الأطباء وأعضاء هيئة التمريض الذين أقسموا اليمين على مواصلة العمل حتى وإن تعرضوا للمخاطر؟

٧ – هل يتم وضع مصلحة الحوامل والرُضع في الاعتبار في خضم المحاولات المضنية لإنتاج لقاح ضد الفيروس، مع العلم أن ثمة إهمال طبي أخلاقي تاريخي لهذه الفئة الكبيرة من البشر؟

٨ – ما المسؤولية الأخلاقية تجاه السجون المزدحمة بمن صدرت ضدهم أحكام أو كانوا رهن الاعتقال أو المحاكمة، وهل تستطيع الحكومات توفير زنزانات حبس انفرادي بكافة سجونها؟

٩ – هل التزم الصيادلة ومصنعو المواد الطبية بقسم ممارسة المهنة خلال الأزمة، أم راودتهم مُغريات الاحتكار والاستغلال والربح السريع؟

١٠ – سواء أكان الفيروس قد ظهر بصورة طبيعية أو تم تخليقه معمليًا أو جاء نتيجة خطأ معملي، فإلى أي مدى يمكن للعاملين بالهندسة الوراثية والتركيبات الجينية تحمل المسؤولية؟ وما هي حدود هذه المسؤولية بدقة؟

لا شك أن فيروس كورونا يُمثل اختبارًا لقوتنا، لكنه في الوقت ذاته يُمثل أيضًا اختبارًا أقوى لأخلاقياتنا، ولا شك أن ثمة تكلفةً بشرية واقتصادية ضخمة سيتحملها الناجون من الفيروس، لكن التكلفة الأخلاقية قد تكون أشد وأعمق خطورة!

(١٦)
كورونا ... زحف الدكتاتورية الأنيقة!

زُرت الصين في أوائل ديسمبر الماضي للمشاركة في مؤتمرٍ علمي، وقضيت بضعة أيام في مقاطعة ووهان قبل أقل من شهرٍ تقريبًا من اندلاع أزمة كورونا. حملت معي (كعادتي في كل رحلة خارج الوطن) دفتر يومياتي لأدون ملاحظاتي عن بلدٍ أزوره لأول مرة، مدفوعًا بشغف

المقارنة بين بلدين يجمعهما دفء الاقتصاد وتُفرقهما برودة السياسة؛ الأولى هي الصين بكل ما لها من ثقل تجاري وتاريخٍ قمعي، والثانية هي اليابان (التي زرتها منذ بضعة سنوات لإلقاء محاضرة عامة) بكل ما بها من ارتقاءٍ حضاري وتسامحٍ سياسي وديني! وبعد رحلة سفر طويلة ومُرهقة استقر بي المقام في إحدى غُرف فندق يانيان Yannian بوسط مدينة تشانجشا Changsha، وكانت أول عبارة دونتها في دفتري ليلة الوصول: «الصين ... الدكتاتورية الأنيقة»!

دولةٌ تُمثل قارةً متفردة في ذاتها من حيث المساحة والمُناخ والتنوع الطبيعي والثقافي، يقترب عدد سُكانها من المليار ونصف المليار نسمة، مزدحمة الشوارع بشكلٍ لم أره في أية دولة زرتها من قبل، ماكينة العمل فيها لا تتوقف، تموج بالحركة في نهارها وليلها. ورغم كثافة عدد سُكانها، وسلوكيات شعبها (على مستوى الشارع) غير المتسقة مع رُقيها الاقتصادي وتقدمها العلمي، سواء من حيث مُعاملة الغُرباء أو التشدد الديني والنظرة شبه العدائية لمُعتنقي الديانات الأخرى، أو طُرق تناول الطعام ونوعياته التي تبث رائحةً كريهة تحملها نسمات الهواء إلى كل مكان، وتستطيع ملاحظتها بمجرد أن تطأ قدماك مطار كوانزو ... ورغم كونها دولة منعزلة عن العالم إلكترونيًا، مُكتفية بتطبيقات خاصة بها للإنترنت والهواتف المحمولة، فلا واتس آب، ولا فيسبوك، ولا تويتر، ولا جوجل ... إلخ، ورغم أن شعبها لا يتحدث أية لغة بخلاف الصينية حتى في أماكن الخدمات والمناطق السياحية التي تستلزم على الأقل لغةً أخرى كالإنجليزية ... رغم ذلك كله إلا أن السمة السائدة، والتي تستطيع رصدها بسهولة، هي النظام، وهو ليس سلوكًا طوعيًا، بل إجباريًا محكومًا بشبكة تكنولوجية هائلة تُشبه أذرع أخطبوط ضخم يُمسك البلاد والعباد بإحكامٍ وقسوة!

قد تقف في طابورٍ ممتد لعشرات الأمتار في المطار أو في محطة السكك الحديدية أو أمام مَعلمٍ سياحي تود زيارته، لكنه يتحرك كالآلة، بانتظام وسرعة تثير التأمل والدهشة، لا يحيد أحدهم، ولا يُنازع، ولا يُراوغ، ولو فعل فأجهزة المراقبة له بالمرصاد! وقد ترغب في شراء شيء من متجر مزدحم، لكنك تُنجز المهمة في سهولة ويُسر من خلال نظام الدفع الإلكتروني باستخدام تطبيقات الهاتف، فلا أوراق نقدية تُثير الشك، ولا انتظار طويل أمام منفذ السداد! ومع ذلك، فالدولة التي تحكم شعبها بالحديد والنار، تُوفر له كل شيء: تعليم جيد، علاج مميز، برامج للتجارة والاستثمار، ترفيه مجاني بالمتاحف والحدائق المنتشرة عبر ربوع الصين!

لذا لم يكن غريبًا أن تتمكن الصين من التصدي لوباء كورونا بتلك الصورة التي أثارت دهشة العالم، وعجزت عنها أعتى دُول الغرب، بل وباتت هذه الأخيرة تطلب الخبرة الصينية لتجاوزها! لكن مهلاً، فلئن كان تفشى فيروس «كوفيد ١٩» بمثابة لعنة للاقتصاد الصيني بإمكانه التعافي

منها، إلا أنه بات أيضًا بمثابة طلقة إضافية في خزانة سلاح المراقبة المجتمعية المتشددة، ليس فقط في الدولة الصينية ذات التاريخ القمعي الطويل، وإنما على امتداد دول العالم التي أدركت في الأزمة الحالية فضائل حُجة المراقبة الصحية والهيمنة الشمولية ... وهل يهدأ للسياسة بال إزاء عقولٍ ينتابها الحُلم أحيانًا بفراديس الحرية الغائبة؟

يقول «فرانسيس لي» Francis Lee، وهو أستاذ بكلية الصحافة والاتصالات في الجامعة الصينية بهونج كونج Chinese University of Hong Kong لشبكة CNBC: «عندما نتحدث عن أنظمة المراقبة الصينية حاليًا، يجب أن نُدرك هدفيها الرئيسين: مراقبة الصحة العامة من جهة، والحفاظ على الهيمنة السياسية من جهة أخرى. وبمجرد النجاح في السيطرة على تفشي المرض، لن تتخلى الحكومة عما اكتسبته من سلطات الجديدة، بل ستستخدم حُجة كورونا لتعزيز قدراتها على المراقبة الجماعية»!

لقد بنى الحزب الشيوعي الصيني عبر تاريخه دولة مراقبة صارمة ذات أساليب مختلفة، ومع تقدم تقنيات الذكاء الاصطناعي وعتاد الحاسوب وبرمجياته، استثمرت الصين طرقًا فعالة بشكل متزايد لتتبع وتعقب مواطنيها في أضيق حارات بكين أو شنغهاي أو غيرها، بما في ذلك تقنيات التعرف على الوجه، والمراقبة باستخدام الطائرات المُسيَّرة عن بُعد، ورموز الاستجابة السريعة، وروبوتات المهام الدقيقة.

على سبيل المثال، نشرت صحيفة جلوبال تايمز Global Times الصينية – المدعومة من الدولة – مقطع فيديو على Twitter يُظهر طائرة بدون طيار مزودة بكاميرا لتعقب أولئك الذين لا يلتزمون بارتداء القناع الطبي. كما استعانت الحكومة الصينية أيضًا بعمالقة التكنولوجيا مثل شركة «تينسنت» Tencent، مالكة تطبيق المراسلة الشهير «وي تشات» WeChat (برنامج تواصل اجتماعي صيني للمراسلة الحرة والتجارة وخدمات الدفع، صدر سنة ٢٠١١، ويوصف بأنه أقوى التطبيقات في العالم، ويستخدمه أكثر من مليار شخص). ومجموعة «علي بابا» Alibaba (التي تدير منصة «علي باي» Alipay للدفع عن طريق الإنترنت والهاتف المحمول)، بهدف استخدام أرقام الهوية ID numbers ورموز الاستجابة السريعة QR codes لتتبع المستخدمين وإخبارهم بما إذا كانوا في حاجة إلى الحجر الصحي، أو بأن لهم حرية التنقل. كما تم استخدام هذه الرموز لإبلاغ الناس في المباني عن التحركات الأخيرة لأي الشخص يلتقونه في مكاتبهم أو بيوتهم!

من جهة أخرى، وفرت شبكات الهاتف المحمول في الصين ميزات للتتبع عن طريق الهاتف، حيث تطلب شركتا «تشاينا يونيكوم» China Unicom (شركة الصين المتحدة لشبكات الاتصالات

المحدودة)، وهي رابع أكبر مزود لخدمات الهاتف المحمول في العالم، و«تشاينا تيليكوم» China Telecom (شركة الصين للاتصالات السلكية واللاسلكية) من كل مستخدم إدخال الأرقام الأخيرة من رقم الهوية أو رقم جواز السفر، ومن خلالها يتم تتبع المكان الذي يحل به أي شخص وإبلاغ المحيطين به بحالته الصحية لتوخي الحذر!

كذلك طرح عمالقة الذكاء الاصطناعي في الصين بعض أخطر أجهزة المراقبة المستحدثة، ففي فبراير الماضي أعلنت شركة «ميجفي» Megvii (وهي شركة تكنولوجيا صينية تُطور برامج التعرف على الوجه والتعلم العميق) أنها طوَّرت أداة (سُوار بيولوجي للمعصم) للتحقق من درجة حرارة الشخص في أي مكان، إذ بإمكانها الكشف عن درجة حرارة الجسم غير الطبيعية وقياس درجة الحرارة ومعدل نبضات القلب وضغط الدم، وتنبيه السلطات التي يمكنها بعد ذلك إخضاع هذا الشخص للفحص، وعلى الخُطى ذاتها تسير شركة «سنس تايم» Sensetime (وهي شركة صينية أخرى تعمل بالذكاء الاصطناعي)!

كل ذلك يدفعنا إلى الزعم بأن شعوب المستقبل القريب قد تُواجه حكومات تُلزم كل مواطن بارتداء سُوار بيولوجي يُراقب درجة حرارة الجسم ومعدل ضربات القلب على مدار اليوم، ومن ثم تجميع البيانات وتحليلها بواسطة الخوارزميات الحاسوبية، لتغدو الحكومة على دراية بأنك مريض حتى قبل أن تعرف أنت، وتعرف بالضرورة مكانك ومن قابلت بحُجة قطع سلاسل العدوى. قد يكون هذا جانبًا إيجابيًا بالنسبة للنظم الطبية، لكن جانبه السلبي يتمثل في منح الشرعية لنظام مراقبة جديد مُرعب؛ فلئن كنت تراقبني حين أتصفح موقعًا بعينه فسوف تعرف شيئًا عن ميولي السياسية، لكن إن كنت تراقب حرارة جسمي ومعدل ضربات قلبي أثناء مشاهدة فيديو مثلاً، فسوف تعرف ما الذي يجعلني أضحك أو أبكي أو أغضب! تخيل مثلاً دولة شمولية استبدادية ككوريا الشمالية سنة ٢٠٣٠، عندما يُضطر كل مواطن إلى ارتداء السوار البيولوجي على مدار اليوم، والتقط السوار علامة الغضب وقت استماع أحدهم لخطاب الزعيم!

تشير «مايا وانغ» Maya Wang (وهي باحثة في هيومن رايتس ووتش HRW في الصين) في حديثها لشبكة CNBC إلى أن أولمبياد بكين Beijing Olympics سنة ٢٠٠٨ قد منح الحكومة الصينية فرصة كُبرى لتطوير نظام المراقبة الجماعية بحُجة «الحفاظ على الاستقرار»، وهو تعبير مُلطف للسيطرة السياسية، وكرَّس الحزب الشيوعي الصيني موارد هائلة للوكالات الأمنية لمراقبة المنشقين، والقضاء على الاحتجاجات، وفرض الرقابة على الإنترنت. ولا شك أن شيئًا مشابهًا قد يحدث بعد انتهاء جائحة فيروس كورونا.

تُضـيف «وانغ» أنه بمجرد نجاح هذه الأنظمة خلال الأزمة، فسـوف يعمل المشـاركون في تطويرها –خاصـة الشـركات الكبرى – على توسـيع نطاق اسـتخدامها محليًا ودوليًا، وهي ظاهرة تعرف باسـم «زحف المهمة» Mission Creep (بمعنى التوسـع التدريجي للعمل أو المشـروع بما يتجاوز نطاقه أو أهدافه الأصلية، وهو تأثير ناتج عن نجاحه).

الكابوس يتضـخم، والنهر يزداد اتسـاعًا، وكرة الثلج تنمو بسـرعة، وقد نجد أنفسـنا يومًا – إن نجونا – أمام عالمٍ جديد تغشـــانا فيه قيود قد برع العقل العلمي في تطويرها، في أشـــد لحظات تجليه وإبداعه ... وخضوعه لولاة الأمر!

(١٧)
كورونا ... أنسنة العالم!

الدرس الأول والأخير والأهم الذي يحمله لنا الوباء هو أن بيولوجيتنا المشـــتركة لا تحترم أيًا من الحدود الذهنية أو الجغرافية أو المادية التي أقيمت كحواجز بين البشـــر ... رواية الفيروس تتحدى النعرات القومية والعرقية، وتُجبرنا على مواجهة مصيرنا المشترك، شئنا أو أبينا!

(١٨)
جائحة كورونا والعولمة العارية!

حتى لو لم يكن لـدينـا الآن مـا نفعلـه إزاء عـالمٍ يُواجـه قســـرًا تفكيـك بنيتـه الأيـديولوجيـة والاقتصـادية، فلا أقل من أن نسعى لفهمه، لعلنا بالفهم نُسهم في إعادة بنائه.

قال أحدهم ذات يومٍ: لا عاصـم اليوم من طوفان العولمة، فلنكن إذن على ظهر السـفينة وإن كنا نجهل وجهتها، وقال آخر: بل هي أكذوبة القوي على الضـعيف، تحملنا إلى سـاحاتٍ تتماهى فيها الحدود والقوميات والثقافات وفق أنموذجٍ أوحد للتعايش، وهل ثمة ما يدعو للاغتباط أكثر من رؤية البشـر وقد خرجوا من كهوف الهوية والتاريخ واللون لينعموا بدفء البنية الحياتية الواحدة والمصير الواحد، حتى ولو هيمن قطبٌ واحد ثقافةً وعلمًا واقتصادًا؟!

لكن يبدو أن المصـير الواحد بات هلاكًا بمعطيات فيروس كورونا التي اسـتباحت اليوم أهم مُخرجات العولمة: التقارب البشـري! هكذا ارتأى كثيرٌ ممن يخوضـون الآن حربًا شـرسًـا لوقف الجائحة؛ فلنشـــرع إذن في بناء جدران العُزلة، ولنغلق الحدود، ولنقيد التبادل التجاري، ولنُســكن الطائرات في مرابضـــها، ولنبحث عن الخلاص في قوميتنا، ولتكن ثرواتنا المادية والعلمية حِكرًا

علينا، ولنقتل العولمة كما قتلتنا! ولِم لا؟ ألم تتحول دولة الرفاهية التي بشـــرتنا بها العولمة إلى كابوس تتضخم فيه بطون رجال الأعمال لتبتلع بشراهةٍ أقوات الشعوب؟ ألم نحمل العولمة مرتزقة الإرهاب على جناحيها لتُصدر الصراعات بين الدول والجماعات والأفراد إلى كافة بقاع الأرض؟ ألم تكن الثقافات في مجتمعات ما قبل العولمة أعمق بكثير من تلك الفقاعات الثقافية التي يبثها الإعلام والإنترنت وتحتفي بها مواقع التواصـل الاجتماعي على مدار السـاعة؟ ألم نكتشـف أن الأسواق الحرة ليست حرة بالفعل، بل مُستبدة بقدر استبداد أربابها؟ ألم تُمزقنا منصات التواصل الإلكتروني أمام شاشات الهواتف والحواسيب لتُنتج مسوخًا تنهشها الأمراض الاجتماعية؟

تلك وجهة نظر جديرة بالتأمل، وإن كان قبولها على إطلاقها يسـتعصـي على الواقع، وعلى ذلك المدى الذي قطعته سفينة البشرية في خضم الأمواج الهائلة للعولمة. ورغم تحفظي الشديد على تذويب الهويات والثقافات واللغات في بوتقة واحدة يُهيمن عليها رأس المال الدولي، إلا أن التقهقر إلى الخلف والتخلي عن مُكتسبات العولمة، وأهمها شراكات البحث العلمي ومستحدثات التقانة والتدفق المعلوماتي، قد يكون أشـد خطرًا وأعمق تأثيرًا على الكوكب برُمته. لذا ربما كان من الأفضل نفض غُبار الأخطاء التي تراكمت فوق دُثر العولمة حتى أبلتها وكشفت عورتها!

هذا ما ذهب إليه مثلاً الفيلسوف الأمريكي «نعوم تشومسكي» Noam Chomsky (٩١ سنة) في حديث له من معزله الصحي في ولاية أريزونا الأمريكية مع الفيلسوف والناشط السياسي الكرواتي «سـريتشـكو هورفات» Srećko Horvat، نقلته قناة حركة الديموقراطية في أوربا DiEM25 TV، ونشـرته وكالة بريسـنزا الإخبارية Pressenza بتاريخ ٣١ مارس ٢٠٢٠، حيث أعلن اننا سنتجاوز أزمة فيروس كورونا، حتى وإن كانت له عواقب وخيمة، لكننا سنواجه أزمتين أشـد رُعبًا وبأسًـا؛ الأولى تتجلى في نُذر اندلاع حرب عالمية ثالثة تحصـد من الأرواح ما لم تحصده أية حربٍ سابقة، وقد تكون أقرب مما كنا نتوقع؛ والثانية أزمة الاحتباس الحراري التي قد تقضـي على الأخضـر واليابس! ويُلقي «تشـومسـكي» باللوم على الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب»، الذي وصـفه بالمُهرج السـوسـيباتي Sociopath Buffoon، باعتباره رئيسًا للدولة التي يُفترض بها أن تقود البشرية نحو عالمٍ أفضل في ظل العولمة، لكنها ضربت عرض الحائط بكافة مقتضيات القيادة، مُؤثرة سياسات ليبرالية جديدة عمَّقت من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأمريكي والعالم طمعًا في مزيدٍ من الأرباح. كان من الممكن أن تبدأ الولايات المتحدة في تطوير لقاحات للمرض منذ ظهوره في الصـين نهاية ديسمبر الماضـي ، وكان بإمكانها أن تُعلن التعبئة المالية والعلمية لإنقاذ العالم، لاسيما بعد أن اسـتضـاف مركز جونز هوبكنز للأمن الصحي Johns Hopkins Center for Health Security بالشراكة مع المنتدى الاقتصادي العالمي

WEF ومؤســـســـة بيل وميليندا جيتس Bill and Melinda Gates Foundation الحدث ٢٠١ (مُحاكاة لتفشــي وباء مُحتمل يُشبه كورونا أجريت في ١٨ أكتوبر ٢٠١٩)، لكنها للأسف تمادت في غيّها الاقتصادي لتفاجئها الأزمة، وتتجلى العولمة عاريةً وفاضحة! وما أسخف أن تعمد كوبا إلى مساعدة أوربا، بينما يعجز الاتحاد الأوربي عن مساعدة إيطاليا، في الوقت الذي ما زالت فيه أمريكا تُمارس ضـــغوطاتها على كلٍ من إيران وكوبا! ويُنهي «تشـــومســـكي» حديثه بأن أمامنا خيارين لا ثالث لهما بعد انتهاء أزمة كورونا: إما أن تنبثق دولٌ وحشــية شــديدة الاســتبداد، أو ينتفض الناس من أجل إعادة بناء جذرية للمجتمع، ونحت مصــطلحات أكثر إنســانية، مُســتلهمةً تاريخ كفاحها الطويل في هذا الصدد.

على المنوال ذاته تقريبًا ينسج المؤرخ الإسرائيلي «يوفال نوح هراري» Yuval Noah Harari، مؤلف كتاب: «*الإنســـان العاقل: تاريخ موجز للبشـــرية*» *Sapiens: A Brief History of Humankind* (٢٠١٤)، وكتاب: «*٢١ درس للقرن الحادي والعشـــرين*» *Lessons for the 21st Century* (٢٠١٨)؛ ففي مقالٍ له نشـــرته مجلة تايم *Time* الأمريكية بتاريخ ١٥ مارس ٢٠٢٠، عمد «هراري» إلى إبراء ذمة العولمة من جائحة كورونا، مؤكدًا أن الســـبب الأول لحالة الرُعب التي يكابدها العالم الآن هو افتقاد الإنسانية للقيادة الحكيمة!

لقد قتلت الأوبئة ملايين الناس قبل زمنٍ طويل من ظهور العولمة؛ ففي القرن الرابع عشر لم تكن ثمة طائرات أو سُفن تجوب القارات، ومع ذلك انتشر الطاعون الأسود من شرق أسيا إلى أوربا، وقتل ما بين ٧٥ و٢٠٠ مليون شــخص (أكثر من ربع ســكان أوراســيا Eurasia: أربعة من كل عشــرة أشــخاص في إنجلترا، وما يقرب من ٥٠,٠٠٠ من جملة ١٠٠,٠٠٠ شــخص في مدينة فلورنسا). وفي مارس من سنة ١٥٢٠ ضرب مرض الجدري المكسيك، ولم تكن ثمة قطارات أو حافلات أو حتى حمير في أمريكا الوُســطى وقتئذٍ، ومع ذلك، وبحلول شــهر ديســمبر من الســنة ذاتها، كان الجدري قد دمَّر أمريكا الوسطى بأسرها، وقتل وفقًا لتقديرات بعض المؤرخين ما يقرب من ثلث سَكانها! وفي سنة ١٩١٨ تمكنت سَلالة من الأنفلونزا الخبيثة من غزو أبعد بقاع العالم انطلاقًا من أوربا، لتقتل ما يقرب من مائة مليون شـــخص في أقل من عامٍ واحد! ومع التقدم في شبكات النقل العالمية إبان القرن الماضـي سادٌ اعتقاد بأن البشرية باتت أكثر عُرضـة للأوبئة، إذ يمكن لأي فيروس أن يشـــق طريقه من باريس إلى طوكيو أو مكســيكو ســيتي في أقل من أربع وعشـــرين ســـاعة، لكن ما حدث هو العكس تمامًا، فقد انخفض معدل هجمات الأوبئة بشـــكلٍ ملحوظ، وأصبح ضحاياها أقل بكثير مما كان عليه الوضـع في أي وقتٍ سابق. هذا لأن أفضل وسيلة دفاع انتهجها البشر ضد الأوبئة لم تكن العُزلة والانكفاء على الذات وإغلاق الحدود، وإنما

البحث العلمي وتبادل المعلومات حول مسـببات الأمراض ووسـائل مكافحتها. لم يكن الناس من قبل يتخيلون أن قطرة مياه واحدة قد تحتوي على أسطول كامل من الفيروسات المفترسة المُرعبة، لذا كانت وسـيلتهم الوحيدة في الماضـي هي إقامة الصـلوات الجماعية التي قتلت المزيد والمزيد منهم، لكن العلم اليوم بإمكانه التجسس على حصـون الفيروسـات وكشـف طفراتها، ففي غضـون أسـبوعين فقط من هجمة كورونا، تمكن العلماء من تحديد التسـلسـل الجيني للفيروس وتطوير اختبار موثوق به لتحديد الأشخاص المصابين.

ماذا نتعلم من ذلك؟ نتعلم أن أية دولة لن تتمكن من حماية شـعبها بإغلاق الحدود بشـكلٍ دائم، حتى وإن بالغت في ذلك، وإنما بالتضـامن العالمي وتبادل المعلومات العلمية الموثوقة، فبينما تقرأ هذه السـطور، ربما تحدث طفرة جديدة في جين واحد لذلك الفيروس الذي أصـاب شـخصًـا ما في طهران أو ميلانو أو ووهان، ولئن حدث هذا بالفعل، فهو لا يُهدد فقط إيران أو إيطاليا أو الصين، ولكن كافة دول العالم كما حدث في الماضي!

لقد تمكنت البشـرية في السـبعينات من هزيمة فيروس الجدري لأن العلم وضـع لقاحه بين أيدينا، ولأن كافة بلدان العالم قامت بتطعيم مواطنيها، ولو أهملت دولة واحدة إجراء التطعيم لكانت البشـرية بأكملها عُرضـة للخطر، لأن وجود الفيروس في مكان ما يعني إمكانية عودته بطفرة تحمل تهديدًا مُضاعفًا!

الأزمة التي نواجهها اليوم إذن ليسـت فقط بسـبب كورونا وعبوره للحدود، وإنما لأن عولمتنا عارية ... عارية من الثقة المتبادلة، وعارية من القيادة الرشـيدة للإنسـانية؛ فعلى مدى السـنوات القليلة الماضية، قوَّض السياسيون عمدًا ثقة الناس في العلوم والسُلطات العامة والتعاون الدولي، وثقة الدول والحكومات في بعضـها البعض، ونتيجة لذلك نواجه الآن هذه الأزمة التي تفتقر إلى قادة عالميين بإمكانهم الإلهام والتنظيم والتمويل لاستجابة عالمية مُنسقة وفعَّالة. في سنة ٢٠١٤، مارست الولايات المتحدة دور القائد لمكافحة وباء الإيبولا، وقامت أيضًا بدورٍ مماثل خلال الأزمة المالية سـنة ٢٠٠٨، لكنها في السـنوات الأخيرة اسـتقالت من دورها كقائد عالمي، وقطعت الدعم عن المنظمات الدولية الكُبرى مثل منظمة الصحة العالمية، وأعلنت بوضـوح أن صداقاتها الدولية تسـتند أولاً وأخيرًا إلى المصـلحة فقط، وعندما اندلعت أزمة كورونا ظلت الولايات المتحدة على الهامش، ولم تسـتطع أية دولة أن تملأ الفراغ الذي خلفته في قيادة العالم، وحتى إن حاولت فقد تآكلت الثقة بعد رؤية العولمة عارية! ومع ذلك، فقد تكون لجائحة كورونا مكاسـبها، فقد يسـتعيد الاتحاد الأوربي الدعم الشـعبي الذي افتقده في مسـيرته خلف الولايات المتحدة، وقد يُدرك أرباب

رأس المال والهيمنة أن الطوفان لن يستثني منهم أحدًا، وقد تموج الإنسانية بنضالٍ يُسفر عن تعاون دولي أوثق وأصدق!

(١٩)
كورونا والفن!

«إيغون شيلي» Egon Schiele (١٨٩٠ – ١٩١٨)، فنان نمسوي من أبرز وأندر فناني أوائل القرن العشرين، وأحد هؤلاء الذين عبروا عن تهالك الجسد ذاتيًا، وانسحاقه داخل فقاعةٍ حياتية سريعة التلاشي. وُلد في محطة قطار مدينة تولن بالنمسا على نهر الدانوب، فظل القطار في مخيلته رمزًا لرحلة الحياة القصيرة، رحلة حياته التي لم تستغرق أكثر من ثمانية وعشرين عامًا، لكن تأثيرها امتد بإلهامٍ صارخ إلى كثير من مُبدعي الفن التعبيري على امتداد العالم. الغريب أنه كان يُدرك هذا التأثير، فالمعاناة البشرية واحدة، وبُكاء الجسد واحد، وانتفاضة الروح داخلة واحدة، وهكذا كتب في رسالة إلى والدته سنة ١٩١٣ يقول: «كل الاشياء الجميلة الرائعة تلتقي وتتحد في اعماقي، سأكون الثمرة التي تترك وراءها أثرًا حيًا حتى بعد جفافها»!

في سنة ١٩١٨، وبينما كان «شيلي» في أوج إبداعه الفني، اجتاح وباء الأنفلونزا أوربا ليودي بحياة عشرات الملايين من الناس. بدأ الوباء في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، وحصد من الأرواح عددًا أكبر بكثير مما حصدته الحرب المُدمرة. وفي أكتوبر من السنة ذاتها أصيبت زوجته «إديث» Edith بالمرض، وكانت حبلى في شهرها السادس بطلفهما الأول، لكن الموت لم يُمهلها لتضع وليدها فقضت نحبها تاركةً له حُلمًا اختطفه المرض، وبعد موتها بثلاثة أيام لحقها «شيلي» متأثرًا بإصابته بالمرض ذاته، وكأنه أراد للحُلم أن يتحقق في عالم آخر!

خلال هذه الأيام الثلاثة رسم «شيلي» لوحته الأخيرة غير المُكتملة: «الأسرة» The Family؛ اللوحة التي وُصفت بأنها أكثر لوحاته هدوءً وحُزنًا، وفيها يُصور نفسه وزوجته وطفلهما الذي لم يكتمل خروجه إلى الحياة، ويُجسد مدى إحساسه بالألم إزاء موتٍ وشيكٍ ومأساة منتظرة ورحلة إلى النهاية! تُرى ما الذي سيرويه الفن عن مأساة الإنسان في زمن كورونا؟

(٢٠)
أزمة كورونا والمقاربات الدينية!

في كتابهما المُشترك «*الطاعون الأبيض*» *The White Plague* سنة ١٩٥٢، وصف عالما الاجتماع «رينيه جول دوبو» René Jules Dubos (١٩٠١ – ١٩٨٢) وزوجته «جين بورتر

دوبو» Jean Porter Dubos (١٩١٨ – ١٩٨٨) الأمراض بالديناميات التي قسَّمت عصور التاريخ البشري. ولا غرو، ففي سنة ٣٢٧ قبل الميلاد أدى مرض الملاريا إلى فشل حملة الإسكندر الأكبر على الهند، ومع هذا الفشل تغير مسار التاريخ في المجتمعات الشرقية والغربية؛ وفي سنة ٥٤١ م عمل طاعون جستنيان *Plague* of *Justinian* (وهو وباء طاعون دملي) على تقويض أسس الإمبراطورية البيزنطية؛ كذلك ساهم طاعون مُسلم بن قتيبة (وهو اسم أول من مات به) سنة ٧٤٨ م في إسقاط الخلافة الأموية وقيام دولة العباسيين؛ وأدى الطاعون الأسود في القرن الرابع عشر إلى تغيير مسار التاريخ الأوربي بقضائه على ما يقرب من ثلث سُكان القارة! وتأتي جائحة فيروس كورونا (كوفيد ١٩) الآن لتُذكرنا مرة أخرى بالتأثيرات الضخمة التي يمكن أن تُحدثها الأمراض على مسيرة الإنسان الحضارية.

من المنظور السياسي، تناولنا في مقالٍ سابق تأثير جائحة كورونا على العولمة (جائحة كورونا والعولمة العارية)، وكذا على النظام الدولي الحالي الذي يُنظر إليه غالبًا على أنه امتداد لمعاهدة وستفاليا Treaty of Westphalia سنة ١٦٤٨، تلك التي وضعت حدًا للصراع الديني في أوربا وأرست قواعد تقسيم الدول القومية ذات الحدود الجغرافية المتميزة، وأوضحنا كيف أن الحدود الجغرافية ليست عقبة أمام انتشار فيروس كورونا – شأنه في ذلك شأن كافة الأوبئة التي سبقته – لأن مفاهيم مثل الأمة أو الحدود الوطنية ليست دائمًا ذات قوة تفسيرية عندما يتعلق الأمر بالديناميات البيولوجية التي تحدث في الطبيعة، وهو ما يجب أن نضعه في الاعتبار حين ننظر في مستقبل العولمة!

في هذا الصدد يذهب الكاتب التركي «غوكهان باجيك» Gökhan Bacık في مقاله «فيروس كورونا وتأثيره على الدين والنظام الدولي» The Coronavirus and its Impact on Religion and the International System (المنشور بتاريخ ١٩ مارس ٢٠٢٠ بموقع أحوال تركية *Ahval*) إلى أن كثرةً من القراءات السياسية والدينية للوضع الراهن تتجاهل أننا لسنا أمام مجموعات بشرية تتناحر لأسباب أيديولوجية أو قومية، وإنما أمام تهديد للنوع الإنساني برمته من قِبل نوعٍ آخر: الفيروسات! ومن ثم فإن استجابتنا في خضم الصراع من أجل البقاء يجب أن تكون بالنظر إلى أنفسنا كبشر، وليس كمواطنين ليبراليين أو اشتراكيين أو يهود أو مسيحيين أو مسلمين أو غير ذلك. وبعبارة أخرى، يجب أن تكون استجابتنا كلية بيولوجية متعالية على التشرذم السياسي والديني السائد. قد نقول مثلاً أن جائحة كورونا قد قوَّضت العولمة بالفعل، لكنها في الوقت ذاته قوَّضت أيضًا سُمعة الدولة الحديثة التي لم تستطع حماية مواطنيها رغم استثماراتها الضخمة في الأسلحة، وكان خيارها الوحيد – والأكثر عقلانية – هو إجبار الناس على البقاء في بيوتهم!

أما عن المقاربات الدينية الحالية لجائحة كورونا فقد اختلفت من منطقة إلى أخرى وفقًا لاختلاف العقائد والممارسات الدينية، لكنها في أغلبها لم تخرج عن رسم حدود العلاقة الجدلية اللامنتهية بين الدين والعلم، أو بالأحرى بين الإيمان الديني بالغيب وإشباع الجوانب الروحية من جهة، وتفعيل ملكة العقل كملكة فارقة للإنسان من جهة أخرى، وربما كان في وسعنا أن نقول أن تعاطي رجال الدين التقليديين مع الجائحة في بعض البلدان كان له تأثيره السلبي القوي على الصورة الشعبية للدين، لاسيما لدي الأجيال الشابة؛ حيث تمادى بعض الدعاة في تقديم وصفات وهمية لعلاج المرض، في استغلال واضح لمشاعر الملايين من الناس بعد أن أصبح الدين الملاذ الوحيد لهم في ضوء نقص الإجابات العلمية، وافتقاد القيادة الواعية، وشُح المطهرات واللوازم الطبية!

في طهران مثلاً أصبح رجل الدين الشيعي الإيراني «عباس تبريزيان» Abbas Tabrizian موضوعًا للسخرية لدى الشباب الإيراني بعلاجاته الطبية الكاذبة، حيث نشر وصفة علاجية – دعا جميع المصابين بالفيروس لتجربتها – مؤداها وضع كرة قطنية مدهونة بزيت البنفسج على فتحة شرج الإنسان قبل الخلود إلى النوم، معتبرًا أن هذه الوصفة منقولة من السلف وكتب الطب وأحاديث رجال الدين الشيعة! وفي بيروت قام الكاهن الماروني «مجدي علاوي» Majdi Allawi – الذي تحول من الإسلام إلى المسيحية في وقتٍ مُبكر من حياته – باستئجار طائرة خاصة ليطوف بها فوق لبنان قرابة ساعتين حاملاً القربان المُقدس في قمرة القيادة، زاعمًا أنه يُبارك البلاد ويدفع عنها البلاء بتضرعه إلى الله. وقبل صعوده إلى الطائرة، سأله جُندي في المطار عما إذا كان يحمل قناعًا واقيًا ومُعقم يد، فأجابه بقوله: «يسوع يحميني ... إنه المُطهر الخاص بي»! وفي ميانمار Myanmar أعلن راهب بوذي أن جُرعة واحدة من عصير الليمون مع ثلاث بذور نخيل فقط كافية لتحصين من يتناولها من المرض، بينما شُوهد بعض الحُجاج في إيران وهم يلعقون الأضرحة الشيعية لدرء العدوى بتوجيه من ملاليهم. كذلك الحال في تكساس Texas بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث زعم الداعية التليفزيوني «كينيث كوبلاند» Kenneth Copeland قدرته على التطبيب عن بُعد Telemedicine، وقام ببثٍ حيٍ باسطًا يده المرتجفة ومُدعيًا إمكانية شفاء المؤمنين عبر شاشاتهم! وفي تونس انتشرت بين النشطاء على مواقع التواصل الاجتماعي، قبل الإعلان عن تسجيل أول إصابة، تدوينات تؤكد أن البلد محميٌ من قِبل أوليائه الصالحين الذين يُعتبرون جدارًا منيعًا يُحصّن تونس من وصول الوافد غير المرغوب فيه، وبعد وصول الفيروس ظهر فيديو تم تداوله بشكل كبير عبر صفحات موقع فيسبوك لامرأة تدعي أنها مرسلة

مع ستة أشخاص آخرين للقضاء على كورونا، وأنها من سلالة الصحابة والأنبياء، ومعجزتها تخليص التونسيين والعالم من الفيروس الخبيث!

الأكثر إثارة للدهشة هو تنظيم أعضاء طائفة هندوسية في العاصمة الهندية نيودلهي، في الرابع عشر من مارس ٢٠٢٠، لحفلٍ طقسي لشرب بول البقر اعتقادًا منهم بأنه يقي من الإصابة بمرض كورونا! وكذلك قيام امرأة في لبنان بزيارة مشفى حكومي حاملةً معها مزيجًا من الماء المُقدس والأتربة الملوثة المأخوذة من ضريح القديس شربل Saint Charbel لعلاج المرضى!

أما في العالم العربي الإسلامي فقد اتخذ رد الفعل الديني أنماطًا متباينة، وإن كانت أغلبها قد انطلقت من فواجع قهر المسلمين في الماضي البعيد والقريب على امتداد العالم، في معية تجنيد الفيروس واتخاذه دليلاً شرعيًا على صحة بعض تعاليم الإسلام في مواجهة العالم الغربي. على سبيل المثال، في الوقت الذي تسابقت فيه الدول الغربية بُغية تطوير لقاح ضد المرض، عمد بعض الدعاة إلى تغييب العقل تمامًا (رغم كونه بُعدًا هامًا من أبعاد الإيمان) بالدعوة إلى الاستسلام للأمر الواقع باعتبار الوباء قدرًا إلهيًا لا حيلة للبشر في دفعه. أيضًا ذهب آخرون في بداية انتشار الوباء إلى أنه عقابٌ إلهي لدولة الصين جراء اضطهادها للمسلمين: لقد عزلوا الإيغور فعزلهم الله! وحين تجاوز الفيروس نطاق الصين ممتدًا إلى الغرب، أصبح الفيروس رسولاً لإغلاق بيوت الدعارة وبؤر البغاء والملاهي والكباريهات وصالات القمار وحلبات السباق وساحات الممارسات الرياضية والحفلات الماجنة! وحين انتقل الفيروس إلى العالم العربي الإسلامي اتخذ رد الفعل سمة البحث عن رسالة الفيروس التأكيدية لبعض المناسك؛ فالكمامة دليل على النقاب، والعزل دليل على حُرمة الاختلاط، والنصيحة الطبية بغسل اليدين دليل على الإعجاز العلمي للوضوء، وهكذا. لقد غفل هؤلاء في ردود أفعالهم عن أن طاعون عمواس مثلاً قد تفشى في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقتل ما يقرب من ثلاثين ألف مسلم من بينهم كثرة من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلَّم، ولم تتخذ ردود أفعال المسلمين وقتئذٍ طابع السلبية والمغالاة كما هو الحال الآن!

مع ذلك، لم يخل المشهد الإسلامي من دعاةٍ جمعوا بين الإيمان والعقل، واتسم خطابهم الدعوي بالحكمة والتوازن في مواجهة ما ارتأوا أنه خطرٌ يُهدد العالم بأكمله، ومن هؤلاء الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، الذي جمعت كلمته المتلفزة للناس بين التقرب إلى الله بالدعاء، ودعوة الأفراد والمؤسسات والدول إلى التكاتف وتحمل المسؤولية في مواجهة الوباء، وتشجيع الطواقم الطبية والالتزام بتوجيهات الجهات المُختصة، وتحريم اختلاق الشائعات، والأخذ بالأسباب مع الإكثار من الصدقات واللجوء إلى الله.

لا شك أننا كمسلمين لدينا إيمانٌ قوى بأن المرض – أي مرض – هو جُندٌ من جنود الله (وما يعلم جنود ربك إلا هو: الحشـــر ٣١)، وأن التقرب إلى الله بالدعاء عبادة، لكن كثيرًا من الدعاة يتناســون أنهم مســؤولون بالدرجة الأولى عن معاناة المســلمين بتجاهلهم لدعوة الدين إلى إعمال العقل، ومزاولتهم للتخدير الديني الحياتي إزاء كثير من الممارســات الســياســية والمجتمعية التي دفعت بالعالم الإسـلامي إلى مستنقع الجهل والتخلف، وازدواجية حضـورهم الدعوي الزُهدي وترف حياتهم الشخصية، وعدم إدراكهم أن أمة الإسلام ليست في حاجة إلى دلائل على صحة عقيدتها بقدر ما هي في حاجة إلى من يرفع عنها الظلم والقهر وينطلق بها نحو آفاق البحث العلمي!

لقد وضــعت الجائحة رجال الدين التقليديين في مأزق وحيرة حول كيفية تحديد رســالتهم وما يُمكنهم الإســهام به في هذه الظروف العصــيبة، وحاول بعضــهم تجاوز المأزق بالترويج لمقولة التكافؤ بين النصيحة الدينية والنصيحة العلمية، مما يُذكرنا بالشعارات التي رفعتها الكنيسة الغربية حين اصطدمت بالعلم في مطلع العصر الحديث!

من جهة أخرى، وبغض النظر عن نوعية الدين، فإن إغلاق الكنائس والســاحات الكبرى (بما في ذلك ســاحة القديس بطرس بالفاتيكان)، والمســاجد (وفي مقدمتها الحرمين الشـريفين بالمملكة العربية الســعودية)، والمجامع اليهودية والبوذية وغيرها، ســيترك بلا شــك أثرًا كبيرًا في ذكريات الشباب الذين لم يعهدوا ذلك من قبل، خصوصًا وأن بعض الممارسات الدينية اتخذت بُعدًا بنكهة التحدي بعد تحرك الســلطات الدينية لتقييد التجمعات، الأمر الذي أدى إلى تفاقم أزمة كورونا في بعض الدول. من ذلك مثلاً تصــاعد عدد المصــابين في ماليزيا نتيجة تجمع ما يقرب من ســتة عشــر ألف مشــارك في تجمع ديني بأحد المســاجد قرب العاصــمة كوالالمبور في الفترة من ٢٧ فبراير حتى الأول من مارس. وفي كوريا تسـببت امرأة مُصــابة بالمرض في الســتينات من عمرها في تفشــي الوباء بعد أن حضــرت أربعة احتفالات دينية بكنيســة المســيح في ســينتشــيونجي Shincheonji Church of Jesus بمدينة تايجو Daegu. وعلى الرغم من حظر التجمعات الكبيرة في نيويورك خلال الفترة الأخيرة، فقد أقيمت عدة حفلات بالمجامع اليهودية الحســيدية ببلدة بروكلين Brooklyn's Hasidic Jewish communities، وقد كان لهذه الحفلات تأثيرها في انتشار الفيروس بشـكلٍ كبير. أيضًــا في الأراضــي الفلسـطينية المحتلة، اسـتعانت الشـرطة الإسـرائيلية المزودة بالكمامات الواقية والقفازات بطائرات مروحية وهراوات للســيطرة على مجموعة من اليهود المتشـددين الذين يصـرون على خرق تعليمات وزارة الصـحة، حيث شـارك مئات الأشـخاص قبل أيام في تشييع جثمان أحد الحاخامات بمدينة «بني براك» قرب تل أبيب، ضـاربين عرض الحائط بإجراءات الطوارئ! لقد ارتكب هؤلاء جميعًا جريمة القتل باســم التقوى، ســواء عن وعي أو عن

غير وعي، على حد تعبير «فيفيان يي» Vivian Yee فـــــــــي مقالها بصحيفة نيويورك تايمز New York Times بتاريخ ٢٢ مارس ٢٠٢٠، تحت عنوان: «في حالة الوباء، يمكن أن يكون الدين بلسمًا وخطرًا» In a Pandemic, Rilgion Can Be a Balm and a Risk.

بعض المؤسـسـات والطوائف الدينية اتخذت سُـبلاً جديدة للتواصـل مع الناس وتقديم خدماتها تلافيًا لحالة السُبات الدعوي خلال فترة تفشي المرض، وتلبية لحاجات الناس الروحانية والنفسية، وإن اختلف مدى التواصل وزخمه. مثال ذلك ما قامت به بعض الأبرشيات والكنائس في الولايات المتحدة الأمريكية من إطلاقٍ لكافة خدماتها الدينية عن طريق الإنترنت، بما في ذلك طقوس اليوجا وقراءات الشعر والخُطب الإرشادية، وتجنيد الرعايا الأصـغر سنًا لمسـاعدة الشيوخ، سـواء بتوصـــيل الطعام لهم، أو متابعة حالاتهم الصـــحية، أو حتى للدردشــــة معهم وإرســـال البطاقات والرسوم التحفيزية. كذلك بث الموقع الالكتروني للفاتيكان صلاة البابا فرنسيس، التي أقامها وحيدًا في سـاحة كاتدرائية القديس بطرس الخالية، بثمان لغات، من بينها الصـينية والعربية، مع إضـافة قناة بلغة الإشـارة. كما نشـطت لجان الفتوى بالمؤسـسـات الدينية الإسـلامية، للرد على كثيرٍ من التســـاؤلات منذ تفشــــي الوباء في الصـــــين، ســـواء عن طريق الهاتف أو من خلال مواقعها الإلكترونية.

هل ثمة تأثير لأزمة كورونا على مستقبل الأديان؟

في الستينات من القرن السابع عشر، كتب الفيلسوف الفرنسي فولتير Voltaire (فرانسوا ماري آرووِيـه François-Marie Arouet) يقول: «إذا لم يكن الإلـه موجودًا فعلينـا أن نخترعـه، ولكن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجودٌ بالفعل»! لم يكن فولتير ضد الدين كجانب روحي مهم في حياة الإنسان كما ظن كثيرٌ من الباحثين، بل إن معظم ما صدر منه من أقوال لم تكن ضد الدين بقدر ما كانت ضد أفكار من يعتقدون أنهم يُمثلون الدين ويتحدَّثون باسم الله!

نعم، الطبيعة لا تكف عن الصياح في كل لحظة مُعلنة أن المُلك لله، ولن يجري في مُلكه إلا ما شـاء وقدَّر، وما فيروس كورونا إلا صـيحةً لإيقاظ الناس من سُـبات الفسـاد الأرضـي وتنبيه الغافلين (وما نُرسـل بالآيات إلا تخويفا – الإسـراء: ٥٩)، لكن يبدو أن صــياح كثرة من الدعاة التقليدين قد أرهق آذان الناس وعقولهم، وعظَّم من معاناتهم، ولئن كانوا في حاجةٍ إلى الدين، فقد أدرك أكثرهم اليوم – أو ربما ســيُدركون – أن الحقيقة ليســت مملوكة لأحد من رجال الدين وإن تدثر بالتقوى، وأن صـياح الطبيعة يقتضـي إعمال العقل وتأمل ملكوت الله بطلب العلم والمعرفة، وأن الإيمان بدون علمٍ إســاءة للدين وطعن في التكريم الإلهي للبشــر، كما أن العلم بدون إيمان حماقة وعماء!

سـيخرج الناس بعد أفول أزمة كورونا بصـدمةٍ قد تُسـهم أولاً في عودتهم إلى الخالق: إيمانًا وفكرًا وعلمًا، وقد تُسـهم ثانيًا في إعادة ضـبط علاقتهم بالطبيعة التي يكادون يسـتنزفون طاقتها؟ وسـتؤدي المفاهيم الصـحية والتقنيات الطبية التي ارتبطت بمكافحة الفيروس إلى ظهور ابتكارات وقواعد جديدة للممارسات الدينية، مثل إنتاج سجادة صلاة للاستخدام مرة واحدة في الحالات التي تسـتلزم ذلك، وتزويد دور العبادة بالمطهرات بشـكلٍ دائم، وتقييد مشـاركة المرضـى في الصـلوات الجماعية، والتماس سُبل الوقاية والعلاج من المتخصـصـين لا من بائعي الوهم وممارسـي الدجل. وإذا كانت أزمة كورونا قد شـكَّلت تحديًا قويًا للدين المؤسـسـي المُنظم أدى إلى التكيف قسـرًا مع ثمرات النشـــاط التكنولوجي، فقد تســـتمر رهبة قدر كبير من الناس من التجمعات وما يمكن أن تنقله من أمراض حتى بعد انتهاء الجائحة، وبالتالي يمكن أن نجد نزوعًا نحو إيمانٍ أكثر فردية!

أخيرًا إذا لم يُسـرع العرب إلى النهوض بالوعي الجمعي من خلال مؤسـســاتهم التعليمية والإعلامية، وظل العقل العربي أسـيرًا للصــراعات الأيديولوجية، مطعونًا بمصــالحها، مُتسـولاً لمقومات وجوده ممن يُمسـكون بتلابيب العلم والتكنولوجيا، فقد تؤدي برامج الهيمنة السـياسـية المتوقعة بعد الأزمة إلى انتكاسـة دينية تتصـاعد معها وتيرة الشد والجذب بين فكرٍ إلحادي مفتونٍ بالغرب، وفكرٍ ديني مشوبٍ بالخرافة والوهم!

والله تعالى أعلى وأعلم

صلاح عثمان

البيطاش – الإسكندرية